بمعنى أنه لا يستبق هذا الوعي في مسيرة اكتماله، بل انه يوازي في تطوره الفني بين وعي الكتابة ووعي الفلسطيني في تحققه على أرض الواقع، لقضيته ومصيره.

في عمله القصصي المتشابك «عن الرجال والبنادق»، يجسد تطلعات الثورة الفلسطينية عبر محاكاة جذورها التاريخية القريبة في الكتابة القصصية؛ إذ يستعيد في مجموع لوحاته المتماسكة صورة النضال الفلسطيني قبل ثلاثين سنة من الكتابة دون أن يفقد جوهر رؤيته لتلك المرحلة التاريخية التي حظيت منه بالعديد من الكتابات في أجناس أدبية مختلفة. عبر خمس لوحات أولى، يضع غسان يده على بدايات الفعل الثوري من خلال رواية حكاية «الصغير الذي يستعير مرتينة خاله ويشرق الى صفد»[٢]،، وذلك لموازاة تطور الحركة الثورية من داخلها وتتبع مراحل هذا التطور في ديناميتها وتفاعلها مع زمنها وواقعها التاريخي... فالصغير الذي يستعير بندقية خاله ويذهب لتحرير قلعة صفد هو الهاجس الداخلي والفعل العفوي للثورة. وغسان يبرز الفطرية الثورية في الدفاع عن أرض الوطن من خلال شخص «الصغير» الذي يقطع الطريق من مجد الكروم الى صفد باحثاً عن بندقية يقاتل بها لتحرير القلعة. وهو، في لجوئه الى الشخصيات العفوية، في فهمها ورؤيتها للعمل الثوري، وتعلمه منها، كما رأينا في روايته التعليمية «أم سعد»، يخلص الى فهمه الاجتماعي ــ السياسي للقضية الفلسطينية عبر شخصيات، كانت باعترافه متقدمة عليه في الفهم والممارسة[٣]... وشخصيات رواية «رجال في الشمس» هي التعبير الفني الأمثل عن تلك الفترة التاريخية الغارقة في ذهولها؛ إذ تجسد لحظة اصطدام الوعي السياسي ــ الاجتماعي بجدار الامكانية، امكانية تحقق الثورة عبر ممارسة جماهيرها الحقيقية. وغسان كنفاني، في فهمه السياسي، كان أقل قدرة، في ذلك الوقت، على اجتراح مثل هذا الفهم... ولكن أبطال «رجال في الشمس»، بعفويتهم واصطدامهم اليومي بمسألة الوجود وعدمه، يجترحون بكلامهم وصمتهم هذا الفهم الذي كان غسان غير قادر على تجاوز سقفه الفكري والسياسي عبر الكتابة السياسية... والذات الباحثة عن نفسها، في هذه الرواية وفي مجمل أعمال غسان المكتوبة قبل ١٩٦٧، لا تستطيع الانفلات من قيودها بل تظل مكبلة الى أغلال خلاصها الفردي باحثة في ذلك عن حلها الشخصي، دون أن تعي وتتنبه الى خطأ الممارسة الاّ ضمن شرط تراجيدي هو شرط الموت طريقاً للخلاص. لقد كان على الشخصيات الثلاث أن تموت لتصل من خلال الموت الى أفق السؤال المطروح في نهاية الرواية: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟».

هذا الحل متجسد في كافة أعمال غسان، وهو يُرْوى بأشكال وطرائق مختلفة، ولكنه يتركز حول معنى واحد يلخص كافة المقولات والرؤى التي تطرح في الكتابة، وهو ضريبة الوطن التي سيدفعها الفلسطيني، فـ«كل فلسطيني سيدفع ثمناً» كما يقول «سعيد س.» في رواية «عائد الى حيفا»[٤].

ان غسان يؤكد، في قصة سابقة زمنياً على «رجال في الشمس»، وهي قصة «الأخضر والأحمر» على مقولة الصراع التي تسيطر على معظم أعماله؛ إذ أنه يبعث الحياة من الموت ويجترح من خلال الرمز رؤية نابعة من جوهر التغير والتحول الذي يتطور عبر مسيرة الحياة البشرية، مرتكزاً على ثنائية وتضاد المسيرة الانسانية... وهذه القصة، على الرغم من بساطتها وعدم تآلف مبناها الرمزي، تحكي الثورة في انبعاثها من تربتها